(56) وقال عن ابن خلدون أنه كان أمير مكناسة، العبر5، ج3 ص38، 39، في حين ذكر الناصري أنه ابن أخي مصالة بنت حبوس، الاستقصاء، ج1، ص82.

(57) موسى لقبال، المرجع السابق، ص258.

(58) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص198.

(59) المصدر نفسه، نفس الصفحة، الناصري، المصدر السابق، ج1، ص82.

(60) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص196.

(61) الناصري، المصدر السابق، ج1، ص82.

(62) إن فكرة الثورة و الخروج عن السلطان الفاطمي عند حميد بن يصيل ،كانت قديمة و رغبته في االإنفصال و الإنفراد بولاية تيهرت كانت واضحة منذ 318هـ/930م عندما غادر المهدية دون إذن من المهدي و بنى قلعة بها ،كما أصهر إلى أحد الشيوخ المنطقة فتدارك المهدي خطورة الموقف فأرسل إلى عامله بها وكان يصل بن حبوس يأمره بإخراجه منها إلى المهدية فأفسد عليه خطته في الإستقلال بتيهرت .الإستقصا ،ج 1 ص82 .

(63) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص198.

(64) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(65) و يسمي البكري هذه المدينة" أفكان "و يقول ظاهها كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة و كان ابتداء تأسيسها سنة 338هـ/449-450م المغرب ،ص 29 ويسميها ابن عذاري "آفكان" البيان، ج1، ص198. ويكتبها ابن أبي دينار بـ"أفكان" بدون ياء، المؤنس، ص63، أنظر الإدريسي، المصدر السابق، صص 250-251.

(66) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص524، الدوادار زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، ج6 مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم 24027، ورقة 195.

(67) المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص92.

(68) الدوادار، المصدر السابق، ج6 ورقة 192.

(69) أبو علي منصور العزيزي الجودري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين، محمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954، صص108، 109.

(70) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، صص 39-40/ الدوادار، المصدر السابق، الورقة 195 غير أن الشماخي قد أشار إلى تاريخ وفاته في سنة 350هـ (967م) هذا الأخير كان وهبيا بخلاف محمد بن خزر الذي كان سنيا مواليا لأموي الأندلس في أغلب الحالات. أنظر عن ثورة أبي خزر: الشماخي، المصدر السابق، صص 313-323

(71) الناصري، الإستقصا، ج1، ص83.

(72) الدوادار، المصدر السابق، ج6، ورقة 117.

"الإسلام الطرقي" وصدمة الظاهرة الاستعمارية بالجزائر:

ترجمة ودراسة وثيقة أصلية نموذجية.

د. محمد الأمين بلغيث

يبدو كما ذهب أحد الباحثين أن الكلمة قد عادت إلى أصحابها الآن، وذلك بعد أن استحوذت الدولة الوطنية على التاريخ مع السيادة التي عادت إلى أصحابها الطبيعيين بعد أن كان الأجانب رواد المدرسة الكولونيالية يركزون اهتمامهم منذ احتلالهم على دراسة إسلام البلدان المستعمرة، اعتقادًا منهم بأنه سيكون قلعة الجهاد؛ وبأن الطرقية هي قناته الشعبية المباشرة، بقدر ما كان إطمئناننا نحن في الجانب الوطني كبيرًا إلى ما ظنناه حقيقة ثابتة في أن مسألة البعد الديني لتاريخنا المعاصر قد حسمت في إطار المعركة الوطنية ضد الاستعمار المباشر، وأن انتصار القوى الإصلاحية والوطنية كان انتصارًا نهائيا لفكرة تحرير التاريخ الوطني من مناهج وقوالب المدرسة الفرنسية(1).

إن واقع الخارطة السياسية والجغرافية للطرق الصوفية في الجزائر كان مجال دراسات وأعمال السلطة الاستعمارية بمختلف وسائلها، وفي هذا السياق يمكن فهم أشكال السلطة التي واجهت الصدمة الغربية القادمة من وراء البحر وتتمثل في سلطة الدولة العثمانية وسلطة الطريقة الصوفية وسلطة القبيلة، ويمكن أن نسحب هذه السلطات على جهاد الشعب الجزائري أو المقاومة الشعبية الجزائرية أو المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

الوثيقة المترجمة، هي صورة طبق الأصل لأي وثيقة تخص مراقبة الطرق الصوفية على اختلاف مواقفها من الاحتلال الفرنسي لبلاد المغرب (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)، ومن

---

*- أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي بكلية أصول الدين- جامعة الجزائر

الطرق الصوفية التي كانت حاضرة أثناء المقاومة في تونس والجزائر وليبيا نذكر السنوسية والقادرية[2] والرحمانية، وأما التيجانية فمواقفها التقليدية في الجزائر كانت معروفة لا لبس في تعاملها المخزي مع بداية الاحتلال مع فرنسا الاستعمارية، وقد كانت مواجهتها لجهاد الأمير عبدالقادر وصمة عار في جبين هذه الطريقة، ويمكن أن نحدد المسار الذي نعالجه في هذه الدراسة لتحديد مواقف الطرق الصوفية في الفضاء الجزائري في بداية الاحتلال بين الصدمة الاستعمارية وردود الأفعال الشعبية التي كانت تنظمها وتؤطرها هذه الطرق الشبيهة في عصرنا بالأحزاب السياسية والجمعيات الاجتماعية أو المجتمع المدني، وحتى نقرب الصورة إلى القارئ نحاول رصد أشهر الطرق الصوفية التي مثلت ما يعرف في الأدبيات التاريخية اليوم: "بالإسلام الطرقي"، وهذا في الجدول الآتي:

المقاطعة	عدد السكان	الرحمانية	الطيبية	القادرية	درقاوة	التيجانية	الزيانية	الحنصالية
الجزائر	718691	225299	35229	30417	64499	17781	3117	......
وهران	443745	2701	22684	11823	897	313	6510	62
قسنطينة	1038962	67139	15645	50582	65396	23046	9627	1172
المجموع	2201398	295139	75558	50582	65396	23046	9627	1234

وحسب هذه الإحصائيات فإن ما يقارب من *533.026* جزائري كان لهم إنتماء لهذه الطرق الصوفية المبينة بالجدول أعلاه، وهو ما يقارب ربع سكان الجزائر الذين تمكنت السلطات الاستعمارية من إحصائهم[3].

إن التعنت والإلحاح الذي تبديه السلطات الاستعمارية تجاه تنقلات الشيوخ والأتباع كانت وراءه عدة هواجس، منها الاحتياط لتنقل الأخبار التي يمكن أن تخل بالأمن الاستعماري بالبلاد، ومنها السعي إلى تحجيم العلاقة الروحية التي تربط بين الشيوخ وأتباعهم كرصيد لسلطتهم؛ ومنها خاصة ضرب العلاقة المادية التي بينهم والمتمثلة في جمع الصدقات، وهي تمثل قناة موازية لجمع الضرائب، لذلك اعتبرتها السلطات الاستعمارية منافسًا جبائيا لابد من القضاء عليه.

لكن هذا التعنت الكبير من طرف الاستعمار في هذا الشأن قد قابله تعنت كبير أيضًا من طرف الشيوخ والأتباع في عدم الإمتثال لهذه القوانين، وكان ذلك باستعمال طرق ملتوية للإفلات

منها أو بالتصادم المباشر معها، لذلك فإن محافظ الشرطة مايركو يتحدث في هذه الوثيقة عن مواقف الأتباع الذين ألقت الشرطة عليهم القبض وزجّت بهم في السجون.

وهذا التذمر والتهديد الصادران عن السلطة البوليسية يدلان على جدية هذه المعركة الخفية التي رفض فيها شيوخ الزوايا الإستسلام للأمر الواقع[4].

وتدخل الوثيقة النموذج المترجمة ضمن مبادرة الأنتروبولوجيا العسكرية عبر تقارير الضباط المهتمين بالأحوال العامة بما في ذلك الواقع الديني ومؤسساته، وبعد استقرار الأمور على إثر القمع الاستعماري برزت فئة ثانية من المهتمين بإدارة شؤون الأهالي من خلال العلم بظروف تكوين المجتمع الجزائري من جميع المناحي حيث نجد في مرحلة مبكرة اهتماما كبيرا للإدارة الاستعمارية بوضعية الطرق الصوفية؛ فأنتجت كميات وتسجيلات كبيرة حول العادات والتقاليد والزيارات والفلكلور والزواج وغيرها من مظاهر المجتمع الأهلي، ولذلك ألف كل من ديبون وكوبولاني كتابهما الشهير حول الطرق الصوفية بطلب من "جول كامبون" حاكم الجزائر العام، وألف لويس رين كتابه الضخم "الإخوان"[5].

وفي هذه الظروف بالذات كتب ديفريي كتابه الشهير" طريقة سيدي محمد بن علي السنوسي الإسلامية وبعدها الجغرافي عام **1300**هـ/**1883**م"، وهذا من خلال دراسة الحركة السنوسية التي أزعجت التوسع الاستعماري الإيطالي والفرنسي في الصحراء الكبرى، وهذه النظرة العامة للطرق الصوفية نجد لها في التاريخ استثناءات؛ فهناك طرق صوفية صديقة وعميلة، انخرطت مباشرة في الآلة الاستعمارية كالتيجانية في الجزائر والطيبية في المغرب الأقصى والجزائر أيضًا.

وقد اتسمت الحركة السنوسية بنفس طويلة في الدفاع عن الكيان الإسلامي، كما نجحت نجاحًا باهرًا في ليبيا حيث كانت القوة الوحيدة التي استطاعت أن تجابه القوى الاستعمارية المختلفة وخاصة منها إيطاليا وفرنسا منذ مرحلة متقدمة من التوسع الفرنسي ثم الغزو الإيطالي للقطر الليبي، كما تحقق الإستقلال عن طريق نضال الحركة السنوسية، وبطبيعة الحال فإن تجارب التجانية والطيبية المخزية وتجارب المهدوية والسنوسية والقادرية في ليبيا والسودان والجزائر تدفعنا للتساءل عن سبب تميزها الجوهري عن مسار بقية الطرق الصوفية في الجزائر وتونس؛ بل عبر مختلف مناطق العالم الإسلامي[6].

"وبالنظر إلى القضية عن قرب كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين تبرز لنا خصوصية هامة إتسمت بها هذه الطرق الثلاث (القادرية (الجزائر) المهدوية (السودان) السنوسية (ليبيا)"(7).

وتمثلت في اعتماد كل منها فكريا على نوع من الإيديولوجية الإسلامية القريبة بطريقة أو أخرى من الحركة التجديدية في الحجاز، وهي الوهابية التي استطاعت عبر هذه التجارب السياسية والدينية بفعل صبغتها السياسية المركزية أن تفرض من فوق نوعا من اللحمة لم يكن تحقيقها في فضاء شعبي بسيط التكوين وتسوده علاقات الفوضى التي فرضها التفكك القبلي الذي عرفته الجزائر في القرن التاسع عشر من جهة والسيطرة الاستعمارية من جهة أخرى.

وقد كانت الإجراءات المتخذة أيام جيل كومبون ضد الطرق الاصوفية تتمثل في تفتيتها وإضعافها والإستفادة منها، دون القضاء عليها أو مواجهتها وسيكون لهذه السياسة عواقبها خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين وكان هذه الطرق قد استنفذت طاقتها وأدت دورها، وكان عليها أن تترك المجال لموجة جديدة من "حماة الدين" وهم رجال الحركة الإصلاحية، ثم بعد ذلك الدور الفعال الذي قامت به الحركة الوطنية الاستقلالية التي دخلت في معركة جديدة مع الادارة الاستعمارية وأعوانها بأساليب جديدة(8).

وكانت فرنسا الاستعمارية لا تزال تراهن على هذه الطرق الصوفية التي استنفذت طاقتها، التي تجددت أيام الحركة الاصلاحية بزعامة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفعل المساعدات والتوجيه التي تقوم بها مصلحة شؤون الأهالي(9).

وقبل أن نختم هذا المدخل الخاص بالوثيقة المترجمة أحببنا أن نقول أن السنوسية ومؤسسها محمد بن علي السنوسي شخصية امتازت بالطموح والهيبة، وكان من العلماء الذين تركوا سمة كبيرة في حياة أتباعه الذين كانوا من المخلصين كما كان محاطًا بفريق من الكوادر العلمية والأدبية مما أهله وأهّل ابنه محمد المهدي إلى تكوين حركة كان لها الدور الكبير في مواجهة المصالح الاستعمارية في المنطقة، وما يمكن أن ننوه به هنا أن فرنسا الاستعمارية في أيام السفاح بوجو أرسلت الجاسوس الشهير ليون روش بصحبة مقدمي الطريقة التجانية والطيبية إلى القيروان والمغرب الأقصى والأزهر الشريف ومكة المكرمة من أجل استصدار فتوى، وهذا عام 1842م لاستسلام المسلمين إلى واقعهم، ولما اجتمع مجلس أعيان وعلماء مكة المكرمة بطلب من الشريف غالب حاكم مكة رفض محمد بن علي السنوسي الكبير التوقيع على استسلام أبناء المسلمين

المجاهدين في الجزائر، وهو ما ذكره الجاسوس ليون روش نفسه في كتابه: "إثنان وثلاثون سنة في الإسلام"(10).

والشئ الذي يحسب لهذا العالم المجدد أنه من بين العلماء الأعلام في عصره الذين شهدت لهم الدراسات والوثائق الأجنبية قبل الكتابات الوطنية بالسمو والفهم العميق لأزمة التخلف التي صاحبت ظروف المجتمع خلال القرن العصيب حيث جمعت الحركة السنوسية بين أعمال القلب وأعمال المادة، إذْ حققت أكبر التصرفات الإسلامية دلالة على وحدة العمل كان توحيد بين الأعمال الروحية وبين الأعمال المادية وهو ما بدا جليًّا في ظاهرة الزهد الإسلامي القويم، فعلى خلاف حضارات أخرى ناقضت أعمال الروح وأعمال المادة، فمالت إلى أحد الطرفين على حساب الآخر، نجد الزهد الإسلامي الذي تمثله الحركة السنوسية قد نشأ جمعًا بين أمرين: أعمال لتصفية الروح، وأعمال للتعمير المادي، وذلك ما كان متجليًا في حركة الرباطات والمحارس التي أقيمت على سواحل إفريقية منذ أواسط القرن الثاني، ثم امتدت من أقصى المغرب إلى الإسكندرية، وفي هذه الرباطات كانت تتناسق أعمال تغذي الروح على منهج من المرابطة الجهادية وأعمال من الوصال الإجتماعي بمباشرة التعليم والتربية لعامة المسلمين، وأعمال النشاط الاقتصادي بمباشرة الزراعة، وتعمير الأرض من قبل المرابطين لما حولهم من الأرض(11) حتى أصبح الرباط بهذا العمل التوحيدي" عاملا من العوامل الثقافية في تكوين الروح الثقافية بالمغرب، واتساعها وترسيخ آثارها في النفسية الشعبية، ووصل ما بين العناصر الاجتماعية بسببها، وهذا المنهج التوحيدي هو الذي امتدت به الرباطات والزوايا في سلسلة صحراوية طويلة توازي السلسلة الساحلية(12)، فقامت الحركة السنوسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر توحد في فعالية عجيبة بين أعمال في الزهد روحانية، وأعمال جهادية تربوية، وأعمال تعميرية اقتصادية زراعية وصناعية(13)، فكانت مظهرًا بديعًا للتوحيد في العمل يمثل بحق فقهًا متميزًا في التحضر الإسلامي من شأنه أن يفضي إلى ترقية منهجية في نطاق الخلافة في الأرض(14)، وهذا ما دعا أحد الباحثين المعاصرين إلى القول أن السنوسية دين ودولة(15).

والوثيقة التي أقدمها للباحثين والقراء الكرام سبق لنا أن نشرناها، وبعد صدور الكتاب بلبنان عام 2001م تبين لنا وجود هفوات كثيرة في نسخ الوثيقة وصياغة بعض فقراتها وهو ما يجدر التنويه به في آخر هذا المدخل(16).

هوامش:

(*)– هذه دراسة بذلت فيها مجهودًا لاخراجها على أحسن وجه، وكنت قد نشرت هذا العمل في كتابي المشار إليه في الهامش رقم:16 الملحق الأول صص:281–290. النص العربي 347–350 النص الفرنسي. والصادر حديثًا بالاشتراك بين دار البلاغ الجزائرية ودار ابن كثير بيروت 1422هـ/2001م. وبعد القراءة اكتشفت بعض الأخطاء التي أساءت إلى الموضوع، وعلى الخصوص نسخ النص المترجم لصعوبة قراءة الوثيقة، فأعدت قراءة ونسخ النص وأعدت صياغة الترجمة وأنوه بالمساعدة الكبيرة والمراجعة التي قام بها الباحث محمد الصالح بكوش من معهد الترجمة بجامعة الجزائر فله كل الشكر والامتنان.

(1)–لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي (دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية)،تونس، دار سراس للنشر، 1993م ص:3 وما بعدها.

(2)–القادرية هي الطريقة المهيمنة في تونس والغرب الجزائري ففي تونس تستحوذ الطريقة على نصيب الأسد من حيث الأتباع: بـ 117681 من الأتباع وبـ 109 من مجموع الزوايا التونسية وقد يعود هذا الإمتياز إلى سبب بسيط يكمن في أنها من أقدم الطرق الصوفية التي دخلت البلاد التونسية وإن جاء تأسيس زواياها متأخرا نسبيا. واشهر زوايا القادرية الزاوية التي أسسها محمد المازوني نزيل مازونة بالجنوب الوهراني، وكان التاسيس بالكاف التي دخلها سنة 1834م وهوكما يظهر عقب أحداث الاحتلال الفرنسي للمنطقة ونتيجة لظروف لا نعلمها وتوفي محمد المازوني سنة 1878م بالكاف.وأما الزاوية القادرية الثائرة فهي زاوية نفطة،وقد أنشئت سنة 1843 عن طريق إبراهيم بن أحمد الكبير، الذي كان منذ 1830 من المناهضين للتدخل الفرنسي بالجزائر، وقد،ارتبطت حياته بمحاولات الأمير عبدالقادر في مقاومة هذا التدخل ويبدو أنه قد سخّر له الجنود وذهب حتى للدعوة للجهاد.وهو أقرب الشبه بزعيم الحنانشة السيد محمد الحسناوي بمنطقة أقصى الشرق الجزائري على الحدود التونسية.انظر: لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي، ص:44–45.

(3)–راجع الدراسة القيمة للأستاذ أحمد نذير:

Ahmed Nadir, » Les Ordres Religieux et la conquete Française » Revue Algérienne des sciences juridiques économiques et politiques ,volume IX. N° 4 Décembre Alger 1972 P:821.

راجع أيضا:بن يوسف تلمساني، الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني،الأمير عبد القادر،الإدارة الاستعمارية) رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،معهد التاريخ جامعة الجزائر السنة الجامعية 1997/1998م.ص:145وما بعدها. عمر بوخروفة:دور بعض الطرق الصوفية" الرحمانية– التجانية" وموقف الحكومة الفرنسية منها"1870–1900"، مذكرة السنة الأولى ماجستير إشراف الدكتور أبوالقاسم سعد الله،جامعة الجزائر،معهد التاريخ السنة الجامعية 1988–1989.

(4)–لطيفة الأخضر،الإسلام الطرقي دراسة في موقعه من المجتمع والقضية الوطنية ص:98–99.

(5)–نفسه، ص:39.

(6)– عمر بوخروفة، دور بعض الطرق الصوفية،ص:40، لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي، ص:147.، تلمساني بن يوسف، الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر، ص:145.

(7)–لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي، ص:147.انظر أيضا" الدجاني (أحمد صدقي) الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر (1202هـ/1320هـ) بيروت، طبعة 1988م ص:163.محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي القاهرة 1948م.ص:145.

H.Duveyrier,La confrérie Musulmane de sidi Mohammed ben Ali Essenousi p:12 et suinantes.

(8)–أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع : ص:292.

(9)–انظر:

Augustin Berque,Affaiblissement des fractions maraboutiques et des marabouts locaux (écrits sur l'Algérie) réunis et présentés par Jacques berque, post-face de Jaen-Claude

(10)– د.أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م.ص:254.

(11)– د.محمد فؤاد شكري، السنوسية دينٌ ودولة، ص:48، د. عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضر الإسلامي، الجزء الأو ل، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1999م.ص:69 وما بعدها.

(12)–محمد الأمين بلغيث، الرُّبطُ بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير بإشراف د.عبد الحميد حاجيات، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1986–1987م.ص:245 وما بعدها.

(13)– د.محمد فؤاد شكري، السنوسية دينٌ ودولة، ص:50.

(14)– د.عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضر الإسلامي، الجزء الأو ل، ص:70.

(15)–د.محمد فؤاد شكري، السنوسية دينٌ ودولة، ص:48.

(16)– انظر: محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق)، وثائق جديدة وصور تنشر لأول مرة، الجزائر، دار البلاغ للنشر والتوزيع، بيروت، دار ابن كثير، 1422هـ/2001م.(الملحق الثاني من الكتاب).

نص الوثيقة المترجمة، من نسخنا

قسنطينة في 14 أكتوبر 1876

الجزائر

مدينة وعمالة قسنطينة

دار الشرطة المركزية

رقم: 4429

الموضوع: شؤون الأهالي– الطرق الدينية.

السيد عامل العمالة

لقد تكرّمتم بإبلاغي تعليمات السيد الحاكم العام فيما يتعلق بالموقف العدواني للسنوسية. وطلبتم منّي تزويدكم بمعلومات عن بقيّة الطّوائف الدّينية بالمقاطعة.

فبتاريخ 12 أفريل سنة 1874 أرسلت إلى السيد رئيس بلدية قسنطينة التقرير التالي عن السنوسية.ولد الشيخ سي محمّد السّنوسي في قبيلة قرب مكناس بالمغرب، حيث زاول دراسته واهتمّ بالعلوم وصار، كما يقال عنه، عالمًا كبيرا. في سن الخامسة والثلاثين وعندما بلغ الأربعين(1) من عمره حجّ راجلا من مكناس إلى مكّة، وعند وصوله إليها أعلن عنه كداعية لمحاربة المسيح الدّجّال؛ لأنّ العرب يؤمنون فعلاً أنّ شعباً همجيًا (يأجوج ومأجوج) سينتشر في كلّ أنحاء العالم

فيفسده ويقتل سكّانه في نهاية العالم (القيامة) المنتظرة بعد 11 سنة، ولن تنجو إلاّ مكّة لبعض الوقت. وخلال فترة سفره وصل السّنوسي أخيرًا إلى الجبل الأخضر، وهو جبل يقع قرب مدينة بنغازي (بيرينيس سابقا وهي ميناء بمملكة طرابلس). حيث أقام مسجدًا يحمل اسمه وبدأ دعوته من جديد. فوجد تجاوبًا في أوساط السكان الجهلة القاطنين في هذه الشّعاب وسرعان ما أدخلها في طريقته وفي آخر المطاف سيطر عليهم.

تنتمي كلّ تلك البلاد اليوم إلى جماعة السنوسي الذي يتمتع، بالتبجيل والاحترام حتى أن أتباعه يقسمون به كما يقسمون بالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم).

كان السنوسي متزوجًا ورزق بثلاثة أطفال يبلغ أصغرهم 34 سنة؛ ورث نفوذ أبيه ويشرف على مسجده.

للسنوسي في قسنطينة عدد لابأس به من الأنصار، وكل الفزانين يقسمون به ويقيمون صلاتهم حسب طريقته، ويتبع بعض سكان طرابلس تعاليمه لكن ليس عندهم مسجدُ ولا مقدمُ، ويراسلون ابن السنوسي مباشرة في مسجد الجبل الأخضر، حيث دُفِنَ الشيخ (2). وتعد الصلاة حسب الشعائر السنوسية تحمس المؤمنين كثيرًا، إذ أنها تكاد تشبه ممارسات الملهمين القديمة، وهكذا لا يمكننا الجزم بأن هذه الممارسات تهدف إلى معاداة السيطرة الفرنسية على المنطقة ومع هذا أضيف أن الشريف (محمد بن عبد الله)(3) الموجود بجنوب تونس يقوم بجولات دورية في منطقتنا (تقرت، سوف، الوادي") من أقرباء هذه العائلة الشيء الذي يستدعي تكثيف مراقبة السنوسية عن قرب.

ومنذ تلك الفترة موقف تلك الطريقة لم يتغير ولم ينقص؛ إذ ليس لها حتى الآن مسجدُ في المنطقة ولا مقدم الطريقة، ولكن أتباعها يتلقون مرارا زيارات المغاربة والتونسيين الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأنهم حملة رسائل، لذا يجب أن يخضعوا إلى رقابة شديدة.

فمن 24 نوفمبر إلى 4 ديسمبر 1876م تمكنا من مراقبة واحد وثلاثين شخصا متجردًا من أية وثيقة ومن أية وسيلة للعيش ومن أي مسكن قار مما يعطينا الحق في الاشتباه في تحركاتهم وتقديمهم إلى العدالة بتهمة التشرد. ولا يزال أغلبهم في السجن وأعتقد أن إجراءات صارمة ستتخذ ضدهم.

الفرق الدينية الأخرى، كإخوان سيدي عبد الرحمن والعيساوية والحنصالية (بقسنطينة) والتجانية، والفقراء أتباع سيدي عمّار بوسنة (بقالمة) فإنهم مستمرون في مزاولة طقوسهم دون

إظهار دلائل توحي بالعدوانية، إلا أن العيساوية والفقراء أتباع سيدي عمار يجب أن يراقبوا عن كثب بسبب تكوينهم، إذ تضم هذه الطرق الدينية في صفوفها عددا كبيرًا من التونسيين والقبائل (بالنسبة للفقراء) لا يوجد ما يضمن لنا ولاءهم. ولكن الأمر الذي يجب فعله – حسب رأي– هو المنع، وعند الضرورة قمع زيارات الشرفاء والمقدمين أو المدعين ذلك سواء كانوا من أصل تونسي أو مغربي أو حتى جزائري؛ الذين يزعمون تحت غطاء جمع التبرعات من إخوانهم في الدين، يجوبون المدن والقرى والعشائر ويستغلون الصدقات، ويرعون التطرف جاعلين أنفسهم همزة وصل بين الجهات المعادية مهيئين الأهالي للثورة.

وبهذا الصدد، أسمح لي سيادة الحاكم أن ألفت انتباهكم مرة أخرى للأخطار والمتاعب التي تسببت فيها السلطات الممنوحة للممثل القنصلي لصاحب السمو باي تونس ببونة (عنابة) بتقديم جوازات سفر لمواطنيه القاطنين وغير القاطنين المسافرين داخل القطر الجزائري طبقًا لنصوص القوانين، خاصة قانون 10 أكتوبر 1795، والتعليمة العامة بتاريخ 23 أوت 1816 التي ثبتها في الإجراءات الأساسية منشور 1 مارس 1858 والمؤكدة بمنشور 13 أفريل 1871؛ يجب على الأجانب القادمين إلى فرنسا أن يرفقوا بتصريح سفر تمنحه لهم سلطات بلدهم إضافة إلى تأشيرة يمنحها أحد وكلائنا الدبلوماسيين في الخارج، ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة إلا لساكني الحدود الذين يمرون في الذهاب والإياب ليمارسوا مؤقتًا حرفهم أو لبيع سلعهم أو لزيارة أقاربهم.

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى تونس فعدد لابأس به من التونسيين يغادرون بلادهم مجردين من أي نوع من الأوراق الرسمية، ومخادعين لرقابة سلطاتنا الحدودية وينتشرون في الجزائر، حيث يقومون بصناعات كثيرا ما تكون محظورة (مثل استيراد السلاح والذخيرة) أو بعمليات خطيرة، وإذا أزعجتهم السلطات المحلية لجأوا إلى قنصلهم الذي يمنحهم جوازات سفر طبقا لما قدموا له هم أنفسهم من معلومات، ولا يمكننا الامتناع عن التأشير عليها، أما إذا لم يلاحظهم أحد فإنهم سيستمرون في ممارسة تجارتهم ولا يعودون إلى بلادهم إلا بعد إنهاء مهامهم. مما يشكل خطرًا حقيقيا، لذا لا يسعدني إلا رؤية الإدارة العليا العودة إلى التشريع القديم؛ أي لا يسمح للوكيل القنصلي لصاحب السمو باي تونس بمنح جوازات السفر إلا للمواطنين القاطنين الطالبين الرجوع لوطنهم أو السفر داخل البلاد– وفي هذه الحالة لا يكون جواز السفر صالحًا إلا بعد أن تأشره